ما ذنب شعوب الخليج حتى تدفع ثمن خلافات دُكامها

بقلم: د. عبد الحميد سلوم

انتهت القمة الخليجية الـ 39 في الرياض ولم يخرج عنها أي شيء يُلبّي طموحات وتطلعات شعوب الخليج العربي التي كانت تراها فرصة لإيجاد حلٍّ يضع حدًا للخلافات الخليجية ويسمح لشعوب الخليج بأن تعود كما كانت تتحرك بسهولة وأمان بين كافة دول الخليج، وتتزوج من بعضها كما كان الحال دوماً دون أي فيتو على أي زواج لأن الزوج أو الزوجة من ذاك البلاد أو غيره... لم يخرج عنها أي شيء يوحى بأن الأشقاء الأعداء سيعودون قريباً أشقاء من جديد وبدون عداوة..

إن كل ما نراه وما رأيناهُ على الساحة العربية منذ سنوات وحتى اليوم يوحى بأن العرب لم يغادروا جاهليتهم يوماً واحداً. وحينما نتحدث هنا عن العرب فنحن نعني الحكومات العربية، لأن الشعوب لا حول لها ولا قوة وهي تُقاد كما قطعان الأغنام.. فإن اختلف زعيم عربي وآخر فيجب على الشعب كله أن يختلف مع الشعب الآخر، وأن يفق إلى جانب الزعيم ويشتم الزعيم الآخر ويمسح به الأرض.. وإن عاد ذات الزعيم وتصالح مع الزعيم الآخر فالويل حينها لمن ينبث بكلمة ضد ذاك الزعيم، بل يجب على الجميع أن يعود ليمدح ويشيد بالزعيم الآخر ولا يجوز مُجرّد التلميح والقول، ماذا حصل: البارحة كانا يشتمان

بعضهما واليوم عادة ليعانقان بعضهما؟. والتسويغ جاهز وفورا يصدق به إعلام كل طرفٍ؛ لقد تخاصما برجولة ومن ثم تصالحا برجولة.. وفي الحالتين لم يستشيرا شعبيهما عن أسباب الفراق ولا عن أسباب التصالح، فالشعوب يجب أن تسمع وتطيع ليس إلا.

كنا نسمع على الدوام عبارات المديح والإطنان والأخوة بين دول مجلس التعاون الخليجي، وفجأة نستيقظ على خطاب آخر مختلف لم يترك تهمة إلا ورمى بها على دولة قطر، ومن ثمّ ردّت قطر "التحية" بالمثل..

الخصام اليوم كبير بين دولة قطر وبعض "شقيقاتها" العربيات.. لم يتركوا السّتر على دولة قطر، وبالمقابل لم تترك دولة قطر السّتر عليهم.. حتى أن هذا الخلاف انعكس على الزوج والزوجة إن كان الزوج، على سبيل المثال، من دولة قطر والزوجة من دولة الإمارات، فعلى الزوجة تطليق زوجها، حتى يعود الزعماء ويتصالحوا ومن ثمّ يمكنهما أن يعودا ويصّبحا زوجين من جديد.. حتى العلاقة الزوجية الأُسرية السامية أقحموها في خلافاتهم السياسية. كمّ ضغطوا على المطربة الإماراتية "أحلام" لتطليق زوجها القطري، ولكنها رفضت.. فحتى علاقة الزوج والزوجة يجب أن تخضع للمصالح العليا للزعيم الحاكم بأمره في دولنا العربية وعند قيادات أمتنا العظام.

هذا مجرد نموذج عن اقتتال العشائر بالجاهلية.. الحكومات اليوم هي من تقوم بدور العشائر.. فهناك عشيرة آل ثاني وهناك في وجهها تحالف عشائر آل نهيان وآل مكتوم وعشيرة آل خليفة وعشيرة آل السيسي.. وهكذا..

كل هذا يؤكّد لنا أن العرب لم يغادروا جاهليتهم يوما واحدا. والإسلام الذي جاء لتخليصهم من عقلية الجاهلية كان أشبه برّصيف عابري مرّ على مضارب العشائر العربية فقدّ موا له القهوة المُرّة ومضى في طريقه دون حفاوة.

لو تجسّد الإسلام في شخصية (إيفانكا ترامب، أو أنجلينا جولي) لَعشقه كل العرب واحتفوا به وتغزلوا بجماله وقدّ موا له عشرات بل مئات أو مليارات الدولارات، وضخّوا بالغالي والنفيس لأجله وتمسّكوا به بكل أياديهم وأطافهم وجلايبهم.

ما نراه اليوم من صراعات عربية، وخليجية هو صورة جاهلية تماما تُعرّض في القرن الواحد والعشرين ولكن في بروايطٍ حديثٍ مُختلفٍ، من خلال الفضائيات والشاشات ووسائل الإعلام الحديثة..

بالتأكيد لن أَدافع عن دولة قطر ولا غيرها، ولكن كل ما قالوهُ عن دولة قطر ينطبق عليهم جميعا .
والكلُّ غارقٌ في السوءات حتى أعلى شعرة الرأس، وينطبق عليهم قول أبو الأسود الدؤلي: لا تنه عن
خُلُقٍ وتأتي بمثلِه+عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمٌ...

والسؤال إلى متى ستبقى الحكومات العربية تزجُّ بشعوبها رغما عنها في صراعات وخلافات الحكومات بين
بعضها؟. لماذا لا يتمُّ تحييد الشعوب في خلافاتهم؟. الشعوب العربية تريد تحييدها تماما حينما يحصل
خلاف بين حكومة وأخرى، ولكنها مُرغمة على السير وفقَ النفق الذي يرسمهُ الحكام.. الشعوب من
بعضها وكلها تتشارك ذات المشاعر والتطلعات ولا تريد حواجزا بينها ولكن حكوماتها تفرض عليها تلك
الحواجز.. الشعوب كلها تُدرك أنه لم يختلف حاكم وآخر لأجل الشعوب، ولم يشتم أحدهم الآخر لأجل
الشعوب، ولم يتصالح واحد مع الآخر لأجل الشعوب، ولم يُعانق واحد مع الآخر لأجل الشعوب، وإنما لأجل
مصالحِ دُكمه الخاصة فقط..

هناك من كانوا ألدَّ أعداء المشروع العربي الوجودي أيام الرئيس المرحوم جمال عبد الناصر، لأن هذا
المشروع كان خطرا على عروشهم، وكان على شعوبهم مُرغمة أن تصطفَّ بجانبهم وتجاهبه بكل مقدراتها
ذاك المشروع وتشتم عبد الناصر.. اليوم هُم ذاتهم يتحدثون عن العروبة والوحدة العربية في وجه
خصومهم على الضفة الأخرى للخليج، والمطلوب من شعوبهم، مُرغمة أيضا، أن تجاهر بالعداء لأولئك
الخصوم وتشتمهم..

تختلف الحكومة المغربية والحكومة الجزائرية ولكن يجب على كلِّ شعبٍ في كلِّ من البلدين أن يختصم
أيضا مع الشعب الآخر، وتُغلقُ الحدود ويُمنع لأيِّ مواطنٍ من الشعبين أن يسافر إلى بلد الآخر..

في أيام الخلاف بين الحكومة في دمشق والحكومة في بغداد، كان كل طرفٍ يكتب على جواز سفر رعاياه :
مسموح السفر إلى كافة البلدان إلا سورية (بالنسبة للعراقيين)، وإلى العراق، (بالنسبة
للسوريين).. والويل لمن يخالف ذلك لأنه سيخضع للتحقيق إلى ما شاء الله، في سورية والعراق، ولن
تُقبل أية مبررات، وسيُحكّم عليه أنه "عميل" .. مع أن الحكومتين، أو النظامين، في سورية والعراق
كانا نظريا الأقرب لبعض في كل العالم العربي، فكليهما رفع ذات شعارات البعث، ولكنهما عمليا كانا
الأبعد عن بعض.

لم تنطلق أية حكومة عربية في أي يوم من مصالح شعوبها في سياساتها ومواقفها، وإنما فقط من
مصالحها.. ولم يستشر أي زعيم عربي شعبه في أي وقت لا في خلافاته ولا في مصالحاته..

كان هناك من يرى في إسرائيل عدوا وشارك في حرب تشرين، وقطع إمدادات النفط عن الغرب، ولكنه ذاته يرى في إسرائيل اليوم حليفاً.. فهل استشاروا شعوبهم في سياساتهم ومواقفهم؟. لا أحداً في العالم العربي يستشير الشعوب ولا يكثر بها، فهم يعتبرون الشعوب من ممتلكاتهم الخاصة ومن حقهم أن يبيعوها ويشتروها بحسب ما تفتضيه مصالح عروشهم وكراسيهم.

للأسف لم يستفيد زعماء البلدان العربية من التاريخ، ولا أدري إن كان أيٌّ منهم قرأ، أو يهتمُّ بقراءة كتابٍ من التاريخ.. أو إن كان يقرأ أي شيء سوى تقارير الأجهزة الأمنية..

العرب عادوا إلى جاهليتهم، وأضافوا إلى خلافت الجاهلية العشائرية والقبائلية، خلافت جديدة دينية ومذهبية وطائفية.. أي أنهم يسيرون من سيئ إلى أسوأ، ويُعمِّقون مصائب هذه الأمة..

بكل الأحوال إن كان هناك عرباً كانوا يرون في إسرائيل عدواً، ثم باتوا يرون بها اليوم حليفاً، فأقول لقد سبقَهم أجداداً لذلك وتحالف في الجاهلية الخرج مع يهود المدينة من بني قينقاع وبني نضير، ضد الأوس..

ولكن نعود ثانية لذات السؤال: ما علاقة الشعوب بخلافت الحكام؟. ولماذا لا يحصر الحكام خلافتهم بين بعضهم بعضاً، ويُحيِّدُ دون شعوبهم عنها؟.